## 4 وُجوب الدعوة إلى الله

إنها رهبة تفزع المسلم حقًا، تقذفها تلك التهديدات التي خاطب الله تعالى بها من يصمت ويتخارس ويدع النهي عن المنكر.

ويظل الأخرس قلقا أبدا، محروما من الطمأنينة والسكينة الإيمانية، فإنها حكر خالص لأصحاب اللسان الناطق بالحق، الذين يبشرون الناس بالجنة، وبسماحة الإسلام وعدله، وينذرونهم عذاب جهنم وقانون التماثل في العقاب الرباني، فيرثون النبي ﷺ في ذلك، كما وصفه الله تعالى، حين قال أنه أرسله بشيرًا ونذيرًا. أو بالاصطلاح الآخر: الذين يدعون إلى الله، أو باصطلاح بعض الفقهاء: الذين يحتسبون، أي يقومون بمهمة الحسبة، أي احتساب الأجر عند الله في أداء النصيحة والأمر والنهي.

وقد تعرض ابن تيمية / لتعريف الدعوة، فقال: (**الدعوة إلى الله: هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا**) [1].

### الدعوة والدعاة في اللغة والاشتقاق

وكلمة (**الدعوة**) هذه هي مصطلح إسلامي، وهناك (علاقة وثيقة بين مدلول اللفظ في الأصل اللغوي، وبين استعمال اللفظ كمصطلح إسلامي صرف، ليس لبقية المعتقدات ناقة فيه ولا جمل.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٥٧.

وأول ما ننظر إلى كون اللفظ فعلا، وهو "**د ع و**" على زنة "**فعل**" وفي العربية: إذا سبق حرف العلة "**الواو**" حرف مفتوح قلب الواو الفاء فتصبح "**دعا**".

ونجد أن هذا اللفظ لا يحمل إلا معنى واحدًا، وهو: أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، انظر معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٧٩.

والإمالة هنا مقتصرة على شيئين: الصوت، والكلام، اللذين يخرجان من حدثهما، وحين ذاك لا يكون لهذا اللفظ مدلول آخر، فأنت حين تقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت:٣٣] تفهم أن الله تعالى فضل من دعا إليه بأن أحسن "قولا" ممن لم يدع إليه.

ومشتقات هذا الفعل لم تخرج في مدلولاتها عن هذا المعنى أبدًا، فالمصدر منه مثلا هو: دعاء، والأصل: دعاو، لأنه –كما هو معروف– من دعوت، إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف قلبت همزة، وقد يأخذ المصدر أشكالا أخرى من الأبنية، يقول الجوهري: "**يقال: كنا في دعوة فلان، ومدعاة، وهو في الأصل مصدر، يريدون: الدعوة إلى** ....". ويقول صاحب المحيط: "دعا دعاء ودعوى"، أي الإمالة والترغيب.

فمن مجموع ما تقدم نفهم أن الصلة وثيقة بين مدلول الفعل دعا في اللغة، وبين مدلوله فيما اصطلح عليه القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل:١٢٥] يدل على الإمالة والترغيب.

والذي يقوم بأمر الدعوة ويحمل عبئها ليبلغها إلى الناس هو الذي يطلق عليه: "الداعي أو "**الداعية**" والداعي اسم فاعل من الفعل دعا يدعو، أما

الداعية فهو بناء اسم الفاعل أيضا مع تاء تلحق في آخره لتدل على المبالغة والتكثير، وإذا أردنا الجمع قلنا: "دعاة" والجمع السالم "داعون" و"داعيات" (١).

## الدعوة وظيفة الرسل وأتباعهم

**(والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة، فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه، أمر بكل معروف، ونهي عن كل منكر)** (٢).

(والواقع أن الدعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعا، ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله وإفراده بالعبادة، على النحو الذي شرعه لهم. قال تعالى عن نوح ÷ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].

وهكذا جميع رسل الله دعوا إلى الله، إلى عبادته وحده والتبرؤ من عبادة سواه ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فرسل الله هم الدعاة إلى الله، وقد اختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها إلى الناس) (٣) .

**(وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب ومن باطن وظاهر، فمن الدعوة إلى الله الأمر به، وكل ما أبغضه الله ورسوله، من باطن وظاهر،**

---

(١) من مقال للشاعر الأستاذ رشيد الأعظمي في مجلة التربية الإسلامية ٥/ ٧١، مع بعض حذف.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٦١.

(٣) أصول الدعوة/ ٢٦.

فمن الدعوة إلى الله: النهي عنه. لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله، وبترك ما أبغضه الله، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة) [1].

## ما ورد في القرآن الكريم
## من آيات الدعوة والأمر والنهي

ووردت في القرآن آيات كثيرة توجب الدعوة إلى الله، منها ما تخاطب النبي ﷺ، فتدخل أمته في الخطاب تبعا له، ومنها ما خاطبت الأمة مباشرة.

فمن الآيات التي تخاطب النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحج] . وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧﴾ [القصص].

(وهذه الآيات يدخل فيها المسلمون جميعا، لأن الأصل في خطاب الله لرسوله ﷺ دخول أمته فيه إلا ما استثنى، وليس من هذا المستثني أمر الله تبارك وتعالى له بالدعوة إليه، ومعنى ذلك أن الله تعالى أكرم هذه الأمة الإسلامية وشرفها أن أشركها مع رسوله الكريم في وظيفة الدعوة إليه) [2].

وأما الآيات التي تخاطب الأمة وتوجب عليها أن تأمر وتنهي فكثيرة لا تدع عذرا لمتقاعد متخوف، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٦٤.
(٢) أصول الدعوة/ ٢٦٩.

قال القرطبي: (**فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها: الدعاء إلى الإسلام**) [1].

وقد سرد الغزالي / هذه الآيات، وعقب عليها تعقيبات قيمة. قال:

(قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران] .

فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [2].

(وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة].

وقال عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس.

---

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٤٧ نقلا عن أصول الدعوة.

(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٧.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب أيضًا.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١].

فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢] وهو أمر جزم، ومعنى التعاون: الحث عليه وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان.

وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣].

وقال تعالى: (﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود:١١٦]

فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ﴾ [النساء:١٣٥].

وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين.

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجُرات:٩] .

والإصلاح نهي عن البغي وإعادة إلى الطاعة، فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ﴾ [الحُجُرات:٩].

وذلك هو النهي عن المنكر)[١].

وإذن، فإن الحريص، على إيمانه، الطالب للفردوس وعليين، يحرص أشد الحرص على أن ينطق بالحق، معطيا راحته ووقته وماله، بل روحه ودمه، ثمنا لما يطلب، فإن الدعوة إلى الله واجبة، لا يعذر منها أحد، إلا من كان مستضعفا من عوام الناس، البسطاء السذج الذين لا يحسنون النطق وتدبير الأمور.

وكما أوجب الله على نبيه الكريم ﷺ أن يقوم فينذر ويدعو إلى الله، فكذلك **(الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله)**.

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهي عنه، وإخبارهم بما أخبر به، إذ الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر)[٢].

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٦٥.

**(وهذا الواجب واجب على مجموعة الأمة، وهو الذي يسميه العلماء: فرض كفاية، إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين)** [1].

(فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله.

وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به.

وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على ذاك، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع أخرى.

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله، وتعليم الإيمان والقرآن.

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعا إليه، وذلك هو الأمر به، إذ الأمر هو

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٦٥.

طلب الفعل المأمور به، واستدعاء له ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله، فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر) [1].

## معنى الكفاية ورد أوهام القاعدين الصامتين

ويتوهم الكثيرون أنهم قد أذن لهم بالقعود حين قرر الفقهاء أن الدعوة فرض على الكفاية، ويختارون أنفسهم في الطائفة المتخارسة، اغترار بأن الدعوة إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، وليس الأمر كما فهموا، كما هو واضح في النص السابق، فإن لفظ القيام بها يعني حصول الشيء المأمور به في عالم الواقع وتطبيقه واتعاظ الطائفة المأمورة فعلا، فإذا بقيت الطائفة المأمورة سادرة في غفلتها، متبعة لشهوتها، والغة في عصيانها بقي جميع المسلمين تحت هذا التكليف، وعليهم أن يعينوا الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالمعروف ويزيدوا قوتهم، ويكثروا سوادهم، إلى الدرجة التي يكتسبون فيها الهيبة والتأثير الكافي لامتناع الطائفة العاصية من أفراد الأمة عن عصيانها ومخالفتها للشريعة، فإذا امتنعت فعلا لزم وجود عدد من الآمرين الدعاة يديمون حالة الامتناع هذه ، ووسع البعض الآخر أن يسكتوا، أما قبل ذلك فلا، ومن يستطلع حالة المسلمين اليوم يجد أن الجهود المبذولة في الدعوة إلى الله، لا زالت أقل من المقدار المطلوب لامتناع من يرتكب المعاصي منهم، ورأس المعاصي الحكم بغير ما أنزل الله، وبآراء العقول والأهواء والأفكار المستوردة، ومن ثم فإنه لا يسع المسلم اليوم أن يقعد عن الدعوة إلى الله ونصرة الدعاة، والاشتراك معهم في جهودهم لاقتلاع السوء والمعاصي، وأهل السوء والمعاصي، وإحلال الخير، وأهل الخير والتوحيد محل ذلك.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٦٥.

(فالدعوة إلى الخير –وأعلاها: الدعوة إلى الله– واجبة على كل مسلم بقدر استطاعته، لأن هذه الدعوة من صفات المؤمنين، ولأن الحديث الشريف أمر كل مسلم ومسلمة بإزالة المنكر حسب استطاعته، فإذا حصل المقصود بفرد أو أفراد لم يطالب الآخرون بإعادة المنكر لإزالته، ولا يؤاخذون لأنهم يزيلوه، والشأن في المسلم المبادرة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون انتظار إلى غيره، فقد لا يقوم به الغير فيقع في الإثم، والمسلم يدعو إلى الله باعتباره مسلما مؤمنا بالله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، فلابد للمسلم أن يدعو إلى الله، ولكن لو قدر أنه لم يدع شخصا معينا إلى الله أو لم يدع في وقت، وقام بالدعوة مسلم آخر، فإن الداعي يؤجر دون الأول، ولكن لو ترك المسلم الدعوة إلى الله تركا دائما مستمرا متعمدًا فإنه لا ينضوي تحت مفهوم قوله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨]، لأن أتباع الرسول ﷺ هم الذين يدعون إلى الله.

هذا.. ومن معاني الفرض الكفائي أنه متوجه إلى المسلمين جميعا بأن يعملوا لتحقيق هذا الفرض، وعلى القادر فعلا أن يقوم بهذا الفرض مباشرة فيكون معنى الآية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] : أن يقوم المسلمون بإعداد هذه "الأمة" أي الجماعة المتصدية للدعوة إلى الله، وأن يعاونوهم بكل الوسائل ليتحقق المقصود من قيامهم وهو إقامة دين الله ونشر دعوته، فإن لم يفعل المسلمون ذلك أثم الجميع، المهل للدعوة وغيره.

**ويقال أيضًا**: إن الدعوة إلى الله، حتى لو قلنا: إنها تجب على البعض دون البعض الآخر باعتبار أنها من الفروض الكفائية، فإن الشروط للخروج من عهدة الفرض الكفائي حصول الكفاية بمن يقوم به، وما كانت الكفاية غير حاصلة، فيجب أن يقوم بهذا الواجب كل مسلم حسب قدرته)[1].

## معنى اختصاص الدعوة بالعلماء

وتعرض لمن لا فقه له هاهنا شبهات وأوهام يظن معها عدم وجوب الدعوة إلى الله.

وأمر هذه الشبهات كأمر أي بدعة، إنما تستند على نص مجمل يمكن صرفه وتأويله إلى بعض المعاني الخاصة التي يمكن أن يتحملها النص، ولكن القواعد العامة للشريعة تأبى هذا المعنى وتدل على خلافه، أو تنقضه نصوص أخرى توجب تفسيرًا آخر للنص الأول، وتكشف المعنى المرجوح فيه.

والغالب في أمر البدع: أن النصوص التي يستند لها أصحابها في ترويجها هي نصوص واضحة لذي الفهم السليم، ولكن الهوى يحمل على التمحل والتكلف في صرفها عن معناها الظاهر، والهوى مسلك نفسي يظهر في صور كثيرة، وتسببه دوافع كثيرة مختلفة، وهو في هذا الموطن، موطن اعتقاد أو ادعاء عدم وجود الدعوة على جميع المسلمين، إنما يسببه في الغالب الخوف والجبن والحرص على الراحة والأسى على تفويت بعض المنافع الدنيوية التي قد تفوت الداعية بسبب أمره ونهيه.

---

(١) أصول الدعوة/ ٢٧٥.

فمن هذه الشبهات: الفهم الخاطئ لقول العلماء: إن التكليف بالدعوة مختص بالعلماء؛ إذ إن (**العلم**) شرط ذكره الفقهاء من جملة شروط الآمر الناهي، كقول الرازي:

**(إن هذا التكليف مختص بالعلماء، لأن الدعوة إلى الخير بالعلم بالخير وبالمعروف والمنكر، فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء لا على الجهال، والعلماء بعض الأمة)** [(١)].

ومثل هذا المعنى عند القرطبي والجصاص [(٢)]. فاشتبه الأمر على من اشتبه عليه من هاهنا.

والحقيقة أن هناك شيئا من الالتباس في فهم هذه المسألة بسبب كلمة **"العلماء"** التي فسر بها هؤلاء كلمة ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ [آل عمران:١٠٤] الواردة في الآية باعتبار أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم.

**(ولا شك أن الدعوة إلى الخير، وأعلاها: الدعوة إلى الله، مشروط لها العلم، ولكن العلم ليس شيئا واحدًا لا يتجزأ ولا يتبعض، إنما هو بطبيعته يتجزأ ويتبعض، فمن علم مسألة وجهل أخرى فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية، ومعنى ذلك أنه يعد من جملة العلماء بالمسألة الأولى، وبالتالي يتوفر فيه شرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل، ولا خلاف بين الفقهاء أن من جهل شيئا أو جهل حكمه أنه لا يدعو إليه، لأن العلم بصحة ما يدعو إليه الداعي شرط لصحة الدعوة، وعلى هذا فكل مسلم يدعو إلى الله بالقدر الذي يعلمه كما سنبينه فيما بعد، ويكون هذا المعنى هو المقصود من**

---

(١) (٢) تفسير الرازي ٧/ ١٧٧، وتفسير القرطبي ٤/ ١٦٥، وأحكام القرآن للجصاص ٢/ ٢٩، نقلا عن أصول الدعوة/ ٢٧٤.

قولهم: إن الدعوة تجب على العلماء لا على غيرهم، أي: على من يعلم المسألة وحكمها التي يدعو إليها، سواء كان من عامة المسلمين أو ممن نال حظا كبيرًا من العلم. وبهذا يظهر فساد قول من قال: إن المقصود بالعلماء هم الذين نالوا حظا كبيرا من العلم دون سواهم، وقد يسمونهم برجال الدين، لأن هذه التسمية تصدق على كل مسلم، فهو من رجال الإسلام، وليست مقصورة على فئة منهم) [1].

## لا يتم الاعتداء إلا بالأمر والنهي

ومن الشبهات أيضًا: الفهم الخاطئ للآية الكريمة: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، فيحجم الذي لا فقه له ممن يسمعها عن الأمر والنهي، ويتودد إلى الناس.

وهذا الإحجام اعتبره ابن القيم من أعظم مكايد الشيطان، فيلقي الشيطان في روع البعض (ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس وحسن الخلق معهم والعمل بقوله تعالى: عليكم أنفسكم) [2].

ويحسن في هذا الموضع أن ننقل مقالة مهمة للإمام ابن تيمية في رد هذه الشبهة، أجاد فيها وأحسن، وأغنى وكفى.

قال /:

(قوله تعالى علوا كبيرًا: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا﴾ [المائدة:١٠٥] لا يقتضي ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا نهيا ولا إذنا، كما في الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق ا أنه خطب على

(١) أصول الدعوة/ ٢٧٤.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ١٣٠.

منبر رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"**.

وكذلك في حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعا في تأويلها: **"إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك"**، وهذا يفسره حديث أبي سعيد في مسلم: **"من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"**.

فإذا قوى أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر، بل يؤذون الناهي، لغلبة الشح والهوى والعجب سقط التغيير باللسان في هذه الحال، وبقي بالقلب.

و**"الشح"** هو شدة الحرص التي توجب البخل والظلم، وهو منع الخير وكراهته، و**"الهوى المتبع"** في إرادة الشر ومحبته، و**"الإعجاب بالرأي"** في العقل والعلم، فذكر فساد القوى الثلاث التي هي العلم والحب والبغض، كما في الحديث الآخر: **"ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"**، وبإزائها الثلاث المنجيات: **"خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحق في الغضب والرضى"**، وهي التي سألها في الحديث الآخر: **"اللهم إني أسألك خشيتك في السر والعلانية، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغني"**.

فخشية الله بإزاء اتباع الهوى، فإن الخشية تمنع ذلك، كما قال ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠] والقصد في الفقر والغني

بإزاء الشح المطاع، وكلمة الحق في الغضب والرضى بإزاء إعجاب المرء بنفسه، وما ذكره الصديق ظاهر، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: الزموها وأقبلوا عليها، ومن مصالح النفس: فعل ما أمرت به من الأمر والنهي، وقال ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله، وأُدي الواجب من الأمر والنهي وغيرهما، ولكن في الآية فوائد عظيمة.

**إحداها:** ألا يخاف المؤمن الكفار والمنافقين لأنهم لن يضروه إذا كان مهتديًا.

**الثانية:** ألا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى، والحزن على ما لا يضر عبث، وهذان المعنيان مذكوران في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧].

**الثالثة:** ألا يركن إليهم، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات، كقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحِجر:٨٨] فنهاه عن الحزن عليهم والرغبة فيما عندهم في آية، ونهاه عن الحزن عليهم والرهبة منهم في آية، فإن الإنسان قد يتألم عليهم ومنهم، إما راغبًا وإما راهبًا.

**الرابعة:** ألا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم، أو عقوبتهم، بل يقال لمن اعتدى عليهم: عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت، كما قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [المائدة:٨]،

وقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال] ، فإن كثيرا من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين.

**الخامسة:** أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع، من العلم والرفق، والصبر، وحسن القصد، وسلوك السبيل القصد، فإن ذلك داخل في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

فهذه خمسة أوجه تستفاد من الآية لمن هو مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها المعنى الآخر، وهو: إقبال المرء على مصلحة نفسه علما وعملا، وإعراضه عما لا يعنيه، كما قال صاحب الشريعة: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، ولاسيما كثرة الفضول فيما ليس بالمرء إليه حاجة من أمر دين غيره ودنياه، لاسيما إن كان التكلم لحسد أو رئاسة.

وكذلك العمل، فصاحبه إما معتد ظالم، وإما سفيه عابث، أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، ويكون من باب الظلم والعدوان.

فتأمل الآية في هذه الأمور من أنفع الأشياء للمرء، وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة، علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات والقرآن، محنة أحمد وغيره، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة، وكما بغت الناصبة على علي وأهل بيته، وكما قد تبغي المشبهة على المنزهة، وكما قد يبغي بعض المستنة إما على

بعضهم وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به، وهو الإسراف المذكور في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا ﴾ [آل عمران:١٦].

وبإزاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق، أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الأمور كلها، فما أحسن ما قال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين، لا يبالي بأيهما ظفر، غلو أو تقصير.

فالمعين على الإثم والعدوان بإزائه تارك الإعانة على البر والتقوى، وفاعل المأمور به وزيادة منهي عنه بإزائه تارك المنهي عنه وبعض المأمور به، والله يهدينا الصراط المستقيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية / [1]، وهو كلام رفيع جليل، ولذلك حرصنا على إيراده بطوله، وكنا قد اختططنا لأنفسنا في مقدمة هذه المواعظ التواضع أمام أئمة الفقهاء والدعاة، والحرص على كلام القدماء وتقديمه على كلام المعاصرين وعلى ما نستطيع إنشاءه.

ويجب الانتباه إلى أن ما أجازه خلال كلامه من السكوت عند قوة أهل الفجور وأذاهم للناهي إنما يقتصر على العامة من المستضعفين، وأما الدعاة والقادة والعلماء فيأخذون بالعزيمة، ويصدعون بالحق وإن لحقهم الأذى والعذاب والموت، كما بينه ابن تيمية في كلام آخر له سنذكره في حلقات قادمة، وكما بينه غيره، وكما كانت سيرة الإمام أحمد بن حنبل / في أيام محنة خلق القرآن، ولاحظ بصورة خاصة أهمية قول ابن تيمية **"وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله"**.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٤٧٩.

(وهكذا صحح الخليفة الأول –رضوان الله عليه– ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة، ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق، فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهد ومشاقه، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه !

وكلا والله، إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح، ولابد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتقرير ألوهية الله في الأرض، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها.

لابد من جهد بالحسنى حتى يكون الضالون أفرادًا ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة، وبكل وسيلة مشروعة وممكنة، حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى، وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم.

وبعد ذلك –لا قبله– تسقط التبعة عن الذين آمنوا)[1].

وإذن فإن مفهوم هؤلاء الذين يعذرون أنفسهم غير وارد، وإنما عنت الآية: أن عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها، وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها، ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم، فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم، وأنتم أمة متضامنة فيما بينها، بعضكم أولياء بعض، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم.

---

(١) الظلال ٧/ ٦١/ ٥٩.

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى.

إن الأمة المسلمة هي حزب الله، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان، ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك في عقيدة، ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة، ولا اشتراك في تبعة أو جزاء.

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها، وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدى الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها.. ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئا أن ضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى.

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى، والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها، فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة، وأن تحاول هدايتهم، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم، ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجوا.

إن كون الأمة المسلمة مسئولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولا، ثم في الأرض جميعا، وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته، وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته، وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه... والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا، وعلى البشرية كلها أخيرًا.

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديمًا –وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثًا– أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر– إذا اهتدى هو بذاته– ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض –إذا هي اهتدت بذاتها– وضل الناس من حولها.

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان –وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم)[1].

❊ ❊ ❊

(١) الظلال ج٧/ ص٥٩-٦٠.

obeikandl.com